مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (29) العدد (2)2007
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Series Vol. (29) No. (2) 2007

أهمية العمل وضرورة الفن

الدكتورة لطفيّة إبراهيم برهم*
يوسف غريب**

(تاريخ الإيداع 5 / 7 / 2007. قبل للنشر في 23 / 9 / 2007)

□ الملخّص □

وقع اختياري على هذا البحث ، وهو أهمية العمل وضرورة الفن ، لما وجدت من اختلاف في المواقف والرؤى تجاه العلاقة بين الفن والعمل ، وحدود كل منها ، واختلاف في المواقف والرؤى تجاه فاعلية الفن وحضوره في الواقع الحياتي وبقي الاختلاف قائماً عبر مراحل التطور التاريخي ، إذ كان الفصل بين الفن والحياة تارة، والربط بينهما تارة أخرى ، تبعاً للقائلين ، ولمكوناتهم وتأثيراتهم ومواقفهم الفكرية عامة . والبحث في منطلقه يؤمن بالربط التلازمي بينهما ويرى أن هذا الربط حقيقة لا تقبل الجدال ولاسيما أن الفن نشاط إنساني مميز ، أو ممارسة عملية ، يستعين بها الإنسان لمواجهة الضرورات الخارجية . والقول بـ " العمل " يحفل بالخلق والإبداع، مما يجعل التجربة الفنية نابضة بالحياة والحركة.

وجلّ ما أتوخاه ، من هذا البحث ، هو أن يستطيع المطّلع عليه التعرف على طبيعة العلاقة بين الفن والعمل، وطبيعة العلاقة بين الإنسان وكل منهما ، وأن تتكون لديه صورة لأهمية العمل وضرورة الفن في الواقع الحياتي، ولا سيما في مواجهة حالات الاستلاب والتشيؤ ، والثقافة الاستهلاكية .

كلمات مفتاحية: أهمية العمل ، ضرورة الفن .

---

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** طالب ماجستير – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (29) العدد (2)2007
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Series Vol. (29) No. (2) 2007

The Importance of Work and the Necessity of Art

Dr. Loutfiyah Ibrahim Bourhoum*
Yousef Dib Gharib**

(Received 5 / 7 / 2007. Accepted 23 / 9 / 2007)

□ ABSTRACT □

I have chosen this research, which is the importance of work and the necessity of art, for I have found a difference in visions and attitudes towards the relationship between art and work and the limits of each of them, as well as a difference in visions and attitudes towards the efficiency of art and its presence in everyday reality. The difference remained active throughout the stages of historical revolution, as there was sometimes the separation between art and life, and the connection between them some other times. That related to people's beliefs and their intellectual attitude.

This research, in essence, believes in connecting between them, and regards this connection as uncontroversial fact. This is especially because art is a distinct human activity or a unique human activity through which man faces the external necessities and claims that the "work" is rich in creation and creativity, making the artistic experience full of life and motion .

What I am aiming at in this research is to get the reader acquainted with the nature of the relationship between art and work, and the nature of the relationship between man and each one of them, as well as to form a picture of the importance of work and the necessity of art in everyday reality, especially in confronting appropriation, thingification and consumerism.

Keywords: The importance of work, Necessity of art.

* **Associate Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria .**
** **MA Student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

إن الكائن البشري الأول كان يعيش في جوّ من الانسجام والوحدة مع الواقع الحياتي والطبيعة حتى بدا في وحدة مع الكائنات الحية الأخرى؛ مع الحيوان والنبات ومع الحجر أيضاً، ينفعل بكل التغيرات حوله ويستسلم لها(1). أما اليوم فإن هذه الوحدة قد سقطت؛ إذا اختلت علاقة الإنسان بالطبيعة لصالح الإنسان الذي اكتسب على امتداد آلاف السنين، خبرات نوعية ميزته من الطبيعة وعنها، كما ميزته من الكائنات الأخرى.

أهمية العمل:

إن سمة الإنسان أنه كائن تاريخي اجتماعي ، والتاريخ حركي متبدل ، لا وجود للثبات فيه ؛ لذلك لا يمكن أن يتخيل أحدٌ إنساناً سكونياً بالمطلق ؛ لأن مثل هذا التخيل يُلغي خصوصية الإنسان وتفرده ، ويخالف ماهية الإنسان المتطورة أبداً ؛ فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يقف عند حدود التأقلم والتكيف مع الوجود والاستسلام له، ولا يبقى على نمط واحد في نشاطه ، وإنما يسعى ، باستمرار ، إلى تجاوز ما تم إنجازه ، وفقاً لإرادته الخلاقة ؛ لذلك يُعيد صياغة علاقاته مع الوجود وفقاً لرؤية جديدة ، ويُقدم على استثمار معطيات الوجود للارتقاء لما يطمح إليه ، وبذلك تكون ماهية الإنسان متسمة بالحركة والتجاوز . وهذه الحركة ليست نشاطاً غريزياً ، وإنما هي نشاط واع " **ينطوي على التركيز وقوة الإرادة التي تنتمي ، بطبيعتها الحقيقية ، إلى الميزات الإنسانية النموذجية**"(2) وتحدد ، في الوقت ذاته ، خصائص الإنسان ، وتجعله أكثر حساسية وتأثراً ومعاناة ، كما تجعله أكثر قدرة على ضبط الانفعال وتحويله إلى إحساس واعٍ ، إذ بقوة الإرادة يكيّف الإنسان الواقع الحياتي المعيش ، ويؤثر فيه ، وفقاً لخبرته ورؤياه المستقبلية .

إن تأثير المستقبل في الحاضر هو مما تتميز به حياة الإنسان وعمله ، بل " **إن الإنسان لا يحيا إلا من أجل المستقبل ، ... ، ويتحرك . دائماً ، صوب الأمام ، محققاً ما لديه من إمكانيات ، آخذاً على عاتقه ، باستمرار، أن يوسع مع دائرة وجوده** "(3) الإنساني ، ورقيه الحضاري ، مما يفضي إلى تجاوز القناعات السابقة والرؤى الكائنة في الواقع الحياتي المعيش إلى قناعات ورؤى جديدة ، تسعى إلى التحقق الفعلي عبر المعايشة الدقيقة لأشياء الواقع وتحولاته ، وملامستها بصورة حسية ، تؤدي ، في النهاية ، إلى تحطيم النمط التقليدي في الحياة ، وتصور بدائل عنه(4) ، تشمل شيئاً مما كان من دون أن يعني ذلك العودة إلى الماضي ، وإنما يعني تملك الماضي تملكاً انتقادياً واستيعابه في التجربة اليومية ، التي تتراكم لتتعدل وتتحول إلى موقف إنساني من الواقع الحياتي ، يسمو عن المحافظة على النوع الإنساني إلى الخلق والإبداع ، ويتحرر من طغيان اللحظة العابرة وضروراتها الآنية ، مما يجعل العمل الإنساني مجالاً مفتوحاً لاحتواء الجهد الإنساني ، في سيرورته التاريخية ؛ مجالاً لا يلغي الجهد السابق، ولا يدعي الكمال الذاتي ، وبتواصل هذا الجهد واستثماره استطاع الإنسان " **تحويل الاتجاهات الضمنية الماثلة في الطبيعة إلى غايات إنسانية صريحة ، تخدم مصلحة البشرية** "(5) وتلبي حاجاتها وطموحاتها . فالإنسان ، بالعمل ، يكيف الطبيعة ويعدل قوانينها وشروطها ، ومن ثم فإن الإنسان القادر على العمل والذي لا يعمل تسقط عنه سمة الإنسانية ، فينحدر

---

(1) ينظر : إرنست فيشر . *ضرورة الفن* . تر : ميشال سليمان (بيروت ، دار الحقيقة ، د. ط ، د. ت) ص21–22 .

(2) مجموعة المؤلفين السوفييت . *الوعي والإبداع* . تر : رضا ضاهر (مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي . ط1 – 1985) ص45 .

(3) زكريا إبراهيم . *مشكلة الحياة* . (الفجالة ، دار مصر ، د. ط ، د. ت) ص254 .

(4) ينظر : جميل صليبا . *المعجم الفلسفي* . (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط1 – 1971) ص17 .

(5) زكريا إبراهيم . *مشكلة الحياة* . ص53 .

إلى مرتبة البهيمية ؛ الكائنات غير الإنسانية ؛ ذلك أن الإنسان ، في جوهره " **هو الموجود القادر على العمل** "[6] ، بل الموجود الوحيد الذي يعمل في حين النشاط الحركي الذي تقوم به الكائنات الأخرى ، على اختلافها ، لا ينتمي إلى مجرى العمل في شيء ، وإنما ينضوي في مجرى الفعل ، وآية ذلك أن الحيوانات كلها لم تبدل علاقتها بالوجود ، منذ أن وجدت حتى اليوم ، وجوهرها التأقلم الانفعالي الغريزي مع التحولات التي تطرأ عليه ، والاستسلام لنواميس الطبيعة ، والاستجابة لها بطريقة آلية وآنية ، فلا تبدي الحيوانات أي نشاط إلا بمقدار ما تستثيرها قوى الطبيعة ؛ لذلك نجد أنها تكرر النشاط الحركي الأول الذي حقق لها الوحدة مع الطبيعة ، وأسهم في بقائها واستمرارها في الوجود من دون أن يطرأ عليه تطور يذكر ؛ أي إنّ نشاط الحيوانات محروم من أي استقلال ذاتي ، ومن ثم فهو محروم من أية فاعلية حرّة مطوّرة ؛ لذلك لا تضيف الحيوانات شيئاً على نشاطها المحقق بقوة العوامل الخارجية ، على الرغم من الإتقان ، الذي يتصف به نشاط بعض الكائنات ؛ الإتقان الذي يعجز عنه أكثر المبدعين من بني البشر ذكاءً ومهارة ونشاطاً ، وشبكة العنكبوت ، بما تتميز به من دقة وإتقان ، خير مثال على ذلك . فنظرة تأمل إلى التطور الذي طرأ على طبيعتها وآلية صنعها وتوظيفها ، عبر ملايين السنين، تظهر أنه يكاد يكون معدوماً ، فهناك تطابق تام بين شبكة العنكبوت اليوم والشبكة الأولى .

بيد أن أبسط أنواع النشاط الإنساني ليس استجابة غريزية ، تقف عند حدود النشاط التلقائي والتقبل السلبي للعوامل الخارجية ، والتكييف معها ، وإنما نشاط واع ، يواجه المؤثرات الواقعة عليه ، ويتدخل في نواميس الطبيعة، فيخفف من حدتها ، ويستثمرها في سبيل ما يصبو إلى تحقيقه . وتتجلى فاعلية هذا النشاط في انتقال الإنسان من الخضوع لقوانين الطبيعة إلى السيطرة عليها ، ومن الفعل الغريزي إلى العمل الواعي المهدّف ، وهذا ما تشهد به مظاهر التحول في الطبيعة ، وحياة الإنسان ؛ إذ كان يسكن الكهوف والأكواخ ، ويستخدم الأدوات البدائية (الحجر والعصا) ، أما اليوم فيسكن ناطحات السحاب ويستخدم الأدوات المعقدة ، (الحاسوب ...) ، مما يدل على وجود فاعلية خاصة للنشاط الإنساني ، ترتبط بالذات ، أخذت على عاتقها تقرير إنسانية الإنسان .

ولما كانت السيطرة على الطبيعة وضروراتها تحتاج إلى قدرات تفوق قدرة الفرد لمحدوديتها فقد اتسم العمل الإنساني ، منذ بدء الحياة الإنسانية ، بسمة الجمعي . فالعلم يثبت أن الحيوانات تمتلك جهازاً بيولوجياً يمكّن أفراد النوع الواحد من التكيف المشترك ، بيد أنها لم تستطع الارتقاء عن التكيف البيولوجي ، في حين أن الإنسان ، حتى البدائي ، استطاع التكيف البيولوجي مع الآخر ، ومشاركته في النشاط العملي ، واستطاع الارتقاء على هذا التكيف وتكوين تجربة اجتماعية ، نمت ، عبر الأجيال ، وتوطد العمل الاجتماعي حتى غدا صفة خاصة بالإنسان ومتساوقة معه ؛ صفة تحدد خصائص الإنسان الفردية ، وطبيعته وأفكاره ؛ لذا يعرّف الإنسان بأنه كائن اجتماعي .

في ضوء المعطيات السابقة ، يصح أن يكون العمل تعريفاً للإنسان ، ولا سيما **أن** " **العمل هو الظاهرة الوحيدة المساوقة للوجود البشري ، بصفة عامة** "[7] وهو الشرط الأولي لهذا الوجود ، والمعنى الأكثر قدرة على تجسيد دلالة الحياة الإنسانية ؛ لأن من لا يعمل هو الميت فقط[8] . ومن ثم ليس وهماً أو جنوحاً عن الموضوعية الإيمان بأن الإنسان كائن يحيا بالعمل ، وبه يطور قدراته الفطرية ، ويضفي عليها ملامح إنسانية ، وذلك استناداً إلى

(6) المرجع السابق نفسه ، ص57 .

(7) زكريا إبراهيم " مشكلة الحياة " ، ص33 .

(8) ينظر : المرجع السابق نفسه ، ص33 .

أن " **العمل الذي يقوم به الإنسان تعبير عن استمرارية وجود الإنسان وتطوره** "(9) ، ومصدر إنسانيته ؛ بمعنى الانتقال من المرتبة البهيمية إلى المرتبة الإنسانية ، وخلق الشروط الإنسانية للوجود وتكاملها ، ففي مجرى العمل يبدو الإنسان " **وكأنه يجسّد قواه الإنسانية – البدنية والروحية في الموضوع ، فتتموضع هذه القوى ؛ أي تتحول إلى صفات لموضوعات ولّدها العمل** "(10) ، فالإنسان يصبغ العمل وموضوعاته بما لديه من خصائص وسمات إنسانية . وبتعبير آخر ، يؤنس العمل بوصفه عملية ، للتحرر من حكم الضرورات الخارجية الآنية ، ومن ثم السيطرة عليها ، والارتقاء بها ، مما يعني أن الإنسان كي يتطور حريّ به أن يُفعّل موضوع العمل والأداة والهدف.

من المتعارف عليه ، علمياً ، أن قوى الإنسان الجسدية تنمو وتزداد بالنشاط الحركي ، الرياضة ... ؛ أي بالعمل ، فإذا تراجع هذا النشاط ، لسبب ما ، تراجعت القوى الجسدية ، وهذا الشيء ينسحب على ملكات الإنسان العقلية والروحية ، فلا تتنامى وتتطور ما لم يتم تحفيزها بالعمل ؛ إذ يشحنها بالخبرات والمعارف ويفجّر طاقات الإنسان الإبداعية . وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى أن العمل ينبغي أن يكون متوازناً ؛ أي تشترك فيه الملكات العقلية والقوى الجسدية ، فلا يطغى النشاط العقلي على النشاط الجسدي المحسوس ، أو العكس ؛ لأن تفرّد أحدهما يؤدي إلى تشويه صورة الإنسان ، ومن ثم تشويه العمل ، ولا سيما أن ماهية العمل تماثل ، في جوهرها ، ماهية الإنسان ؛ إذ تتداخل فيها المعطيات الذاتية والموضوعية في وحدة عضوية لا تتجزأ ، بل إن المعطيات الموضوعية للإنسان مشروطة بالمعطيات الذاتية ، وهذا ينسحب على المعطيات الذاتية ، فتتبادلان ، باستمرار ، التأثير والتفاعل ، ليمسي الوجود الذاتي موضوعياً ، ويمسي العمل الإنساني ذاتياً بقدر ما هو موضوعي(11) ، تلك هي ماهية الإنسان ، وكل واقع إنساني وما يمت إليه بصلة . فالموضوعية والذاتية جانبان متلازمان متداخلان في الإنسان وما يصدر عنه من نشاط ، ويشكلان معاً سلوك الإنسان وطبيعة حياته .

العمل والإنسان:

إن العلاقة بين الإنسان والعمل ليست علاقة تكامل أفقي – سطحي ، أو علاقة فاعل ومنفعل ، وإنما هي في الجوهر ، علاقة تفاعل خلاّق ، كُلّ طرفٍ فيها ، الإنسان والعمل ، على قدر واحد من الأثر والفاعلية والحضور، كما أن كل طرف يخلق الآخر ويطوّره كما يتطوّر به ؛ بمعنى أن العمل الذي يحدد ماهية الإنسان هو، في الوقت ذاته ، يتحدد بالإنسان ، وذلك باستخدام أدوات مُعيّنة لإنجاز عمل ما ، واستبدالها بأدوات أكثر تطوراً في مرحلة زمنية تالية ؛ ذلك أن العمل يتجدد بالأدوات ويجددها . ولما كان العمل نشاطاً خاصاً بالإنسان فإن أداته كذلك هي خاصة بالإنسان ، " **لقد ولدا معاً ، وارتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً** "(12) وهذا الارتباط ينسحب على علاقة الإنسان الجدلية بالعمل ؛ فالإنسان " **يرقى ، بنفسه ، عن طريق العمل ، ليصبح كائناً مفكراً** "(13) ؛ ليصبح إنساناً، يختلف عن الكائنات الأخرى ليس في الشكل ، فحسب ، بل في الماهية والنشاط العملي والإحساس بالزمن ، كما أن العمل يرقى ، بنفسه عن طريق الإنسان **ليصبح** " **شكلاً جديداً مغايراً للشكل القديم الذي كان ، فقط ، من أجل المحافظة على استمرار**

---

(9) محمد عبد القادر سالم . *العالم كعمل ... حرية* . (مؤسسة العلاقات الاقتصادية والقانونية ، د. ط ، د. ت) ص100.

(10) *المعجم الفلسفي* ، ص16 .

(11) ينظر : محمد عبد القادر سالم . *العالم كعمل ... الحرية* . ص44 .

(12) إرنست فيشر ، ضرورة الفن ، ص18 .

(13) إرنست فيشر . *الاشتراكية والفن* . تر : أسعد حليم ، (بيروت : دار القلم ، ط$_2$ – 1981) ص54 .

الوجود ... ، فقد استطاع العمل ، بواسطة الإنسان ، خلق موجودات جديدة "[14] مما يدفع للتنبؤ بأن المستقبل سيحمل المزيد من الخلق والإبداع وظهور موجودات غير معروفة الآن ، مما يعني تراجع سيطرة الطبيعة أمام فاعلية الذات الإنسانية واستقلالها ؛ وبذلك فإن الإنسان في المستقبل سوف يغدو أكثر اكتمالاً ورقياً من الإنسان في الماضي ، ومن الإنسان في الواقع المعيش . ويتعزز هذا التنبؤ بما يفترضه العمل ، وهو: "**إن كلاً من الإنسان والعالم ، أو الذات والموضوع ، ليس حقيقة مكتملة ، أو شيئاً جاهزاً معداً من ذي قبل ، بل حقيقة مرنة تلتمس التحقق ، أو شيئاً ناقصاً لا بد من العمل على استكماله** "[15] مستقبلاً ، ويكون ذلك بالنشاط المهدّف ؛ بالعمل .

واستناداً إلى الافتراض السابق ، يبقى الإنسان والعمل معاً ، في حركة مستمرة سعياً لتحقيق الاكتمال المنشود، مما يُحدِث في سيرورة الحياة ومجرى الزمن ، نوعاً من الانهيار والبناء في سياق التجاوز والتخطي ؛ انهيار الموجود النمطي وتجاوزه إلى بناء موجود فريد لا يمكن أن يقوم غيره مكانه ، وهذه النظرة تنسحب على الفن ، بوصفه عملاً له سماته الخاصة ، أو شكلاً من أشكال العمل ، فهو نتاج العمل الحياتي ، وليس نشاطاً منعزلاً؛ " **فخلال العمل – الذي أكسب البشر طبيعتهم الإنسانية – نمت طاقات الإنسان الإبداعية ، وتطورت حواسه الروحية والخارجية ، وارتقت قدرتها على الإحساس والشعور والمعاناة ، والتذوق ؛ أي أن العمل خلال تحقيقه لإنسانية الإنسان قد أهل هذا الإنسان لأن يكون مبدعاً للفن ومتلقياً له** "[16] ؛ بمعنى أن الإنسان أصبح فناناً بالعمل، مما يؤكد أن الفن والعمل من طبيعة واحدة ؛ " **فكلاهما مزيج عضوي من الفكري والحسي** "[17] الذاتي والموضوعي ، فلا يمكن لأحدهما أن ينعزل عن الآخر ؛ لأن مصدرهما واحد هو الإنسان وطبيعتهما واحدة ، مما أوجب التلازم بينهما ، وهذا يؤكد أن تطور الفن لا ينفصل عن تطور العمل ؛ فالفن في نشأته الأولى كان " **وظيفة عملية بحتة تستهدف أغراضاً اقتصادية مباشرة** "[18] ؛ ففي بداية التاريخ الإنساني لم يكن هناك فن بالمعنى الدقيق، بل كان هناك عمل يعين الإنسان في السيطرة على الطبيعة والوفاء بحاجاته الضرورية ، وفي غمرة هذا العمل نشأ الفن ورافقه ؛ لذا " فالعمل – حتى في أكثر عصور ما قبل التاريخ بدائية عندما كان النشاط العملي موجهاً إلى الوفاء بالحاجات الضرورية المباشرة للحياة – نوع من الإبداع[19] .

العمل والفن:

بالعمل تطورت قدرات الإنسان ، وتحسنت اليد الإنسانية والعقل الإنساني إلى مستوى استطاع به الإنسان أن يصنع أدوات صراعه مع الطبيعة ، كما استطاع تملك الواقع جمالياً في الفن . والفن ، في الجوهر ، ليس إلا العمل، ولن " **يكون سوى ازدهار العمل** "[20] . وعلى هذا الأساس من ارتباط الفن بالعمل بدأت ولادة الفن وارتقاؤه ، على وجه العموم ، وفن الحركة ، على وجه الخصوص ؛ فثمة تأثير مباشر للعمل في فن الحركة ، وفي عنصر الإيقاع الموزون

(14) محمد عبد القادر سالم . *العالم كعمل ... حرية* . ص48–49 .

(15) زكريا إبراهيم . *مشكلة الحياة* . ص57 .

(16) عبد المنعم تليمة . *مقدمة في نظرية الأدب* . (بيروت : دار العودة ، ط2 – 1979) ص9 .

(17) مجموعة من المؤلفين السوفييت . *الوعي والإبداع* . ص144 .

(18) أرنولد هاوزر . *الفن والمجتمع عبر التاريخ* . تر : د. فؤاد زكريا ، (بيروت : المؤسسة العربية ، ط2 – 1981 م) ج1 – ص17 .

(19) عبد المنعم تليمة . *مقدمة في نظرية الأدب* . ص8 .

(20) شارل لالو . *الفن والحياة الاجتماعية* . تعريب : د. عادل العوا ، (بيروت : دار الأنوار ، ط1–1966م) ص21.

بشيء من التحديد[21] ؛ فالتوقيع النغمي للأصوات التي تصدر عن الإنسان ، وهو يعمل ، تطورت تاريخياً حتى غدت شعراً . وبتعبير آخر ، إن لهاث الجهد الناجم عن قيام الإنسان بعمل جماعي تحوّل إلى شكل من أشكال الشعر[22] ، ثم تطور التوقيع النغمي بتطور العمل إلى مقاطع شعرية ، مما أسهم في ولادة أغنيات العمل ؛ أغنيات الحصادين وأغنيات البحارة ، ... ، ثم أخذت هذه الأغنيات تستقل عن العمل . كما أن الإنسان العربي الذي كان يحدو الجمال ، على سبيل المثال ، وهو ينتقل من واحة إلى أخرى ، لم يكن هدفه على الأغلب الاستمتاع بالحداء فقط ، إنما كان يسعى في الوقت ذاته ، إلى استثمار التوقيع النغمي لإيقاع الحداء لتنظيم حركة الجمال . والتخفيف من عناء الرحلة في الصحراء ، وهذا ينطبق على أغنيات الحصادين والبحارة ؛ إذ كانت تسهم في تنظيم العمل وتحفيز طاقات الإنسان على أدائه . أما النقوش والمنحوتات التي تصور أعمال الصيد فهي ، على الأغلب ، كانت تدريباً على عمليات الصيد .

هنا ، لا بد من الإشارة إلى أن استقلال الفن لا يعني ، هنا ، الانعزال عن العمل ، وإنما امتلاك فاعلية ذاتية ؛ فاعلية لها تأثيرها في العمل نفسه ، وعندما ينعزل الفن عن الحرفة أو العمل " **يفقد أقوى أسسه المادية والاجتماعية معاً ، وينزع إلى الضياع تائهاً في الفراغ** "[23] . والتشوهات التي ألمت بفاعلية الإنسان الجمالية ، اليوم ، ليست إلا نتيجة لانعزال الفن عن الواقع الحياتي المعيش ، وانعزاله عن النشاط الإنساني ، ولا يمكن تجاوز هذا الانعزال إلا بالتربية الجمالية ؛ لأنها قادرة على استيعاب الخبرة الإنسانية ، وإعطائها بعداً موضوعياً تاريخياً واجتماعياً .

وإذا كان للنشاط العملي تأثير فاعل في ولادة الفن وتطوره فإن للفن تأثيراً في نشاط الإنسان لا يقل فاعلية وحضوراً عن ذلك ، وفي الواقع الحياتي ، تاريخياً ، أدلة كثيرة تشير إلى فاعلية الفن وحضوره في النشاط العملي .

ومن النتائج المحسوسة للفن صقل حواس الإنسان وتمايزها ؛ فيد الفنان تختلف عن يد الإنسان غير الفنان، وكذلك حساسية النظر ، فعين الفنان قادرة على التمييز بين ألوان شديدة التقارب لا يمكن لعين الإنسان غير الفنان أن يدركها ، وآية ذلك الممارسة العملية ، وما يكتسبه الفنان من خبرات تساعده على إتقان عمله وتملّكه ، ومن ثم تملّك الواقع جمالياً ، بوصفه موضوعاً للعمل الإنساني ، فالفن ينمي إحساس الإنسان وحواسه وقدرته على مواجهة الضرورات الخارجية والسيطرة عليها ، " **ويُخلق الوعي الثوري الذي يحطم البنية اللاثورية في المجتمع** "[24] ، لخلق واقع أكثر " **جمالاً وإشراقاً ونقاوة وإضاءة** "[25] ؛ وذلك بنشر الوعي الجمالي : التربية الجمالية لمواجهة التطور اللا إنساني في الفن والحياة نتيجة للتطور العملي التكنيكي ، الذي حول الإنسان إلى كائن ذرائعي ، يعيش في عالم من الحسابات والعلاقات المنطقية المجردة من العاطفة والإحساس بالآخر ، مما يعني عقلنة الوعي الإنساني وبرمجته لصالح هذه العلاقات الجافة ، وتأهيله بالثقافة الاستهلاكية .

ومثلما يحقق الإنسان ، بالعمل إنسانيته ، يحققها بالتواصل الاجتماعي ، ومن دون هذا التواصل تصبح إنسانية الإنسان مجتزأة ، ناقصة ، أو بالأحرى غير موجودة . فالمجتمع والعمل عاملان متلازمان متناغمان ، وشرطان ضروريان لخلق إنسانية الإنسان ؛ لأن العمل الإنساني مشروط بتفاعل الذات مع الوسط الخارجي ، بما فيه الاجتماعي

---

(21) ينظر : المرجع السابق نفسه ، ص19 .

(22) ينظر : المرجع السابق نفسه ، ص22 .

(23) المرجع السابق نفسه ، ص34-35 .

(24) أدونيس . *زمن الشعر* . (بيروت : دار العودة ، ط$_2$ – 1978) ص83 .

(25) المرجع السابق نفسه ، ص102 .

، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش منعزلاً عن الآخر ، كما أن المجتمع ليس مجموع الأفراد فيه ، وإنما وجوده مرتبط بالعمل ، وكل مجتمع لا يعمل هو مجتمع مريض مشوّه ، " **وعالة على غيره من المجتمعات ، وحجر عثرة في طريق سعي الإنسان المتقدم نحو الكشف عن الحقيقة** "(26) ، أو جوهر الوجود .

إن تعريف الإنسان بأنه كائن اجتماعي لا يعني ، في حال من الأحوال ، أنه يعيش وفقاً للضرورات الخارجية الاجتماعية وقوانينها التي قد تطغى على فاعلية الذات المستقلة ، فتجعل الإنسان متلقياً سلبياً لما في الواقع الاجتماعي من قيم آنية . فالإنسان ذو وظيفة اجتماعية وموضوعية ؛ لأنه يعمل في موضوع ويمارس فاعلية وجدانية حرّة ، فيستثمر معطيات الواقع الاجتماعي ، بكل ما فيه من توتر ، وفقاً لرؤيته الخاصة فلا يعيد ما يأخذه من المجتمع كما هو ، وإنما يعكسه انعكاساً خلاقاً . من هنا كان القول بعضوية العلاقة بين الذات والآخر ، أخذاً وعطاءً ؛ أي إن الإنسان يتأثر بواقعه الاجتماعي ويؤثر فيه ، يستوعب قيمة ويتجاوزها إلى قيم جديدة ، وبهذه الفاعلية تجاوز الإنسان الفعل البيولوجي إلى العمل الإنساني الاجتماعي .

وإذا كان الإنسان لا يعيش إلا في واقع اجتماعي فإن هذا الواقع مدين بوجوده إلى فاعلية الذات ؛ " **لأن الإنسان لا يعمل لنفسه ، فحسب ، بل يعمل للآخرين . ومع الآخرين وبالآخرين** "(27) ، مما يعني أن الإنسان تركيب عضوي لمجموع التأثيرات الفردية والعوامل الاجتماعية ، وأن المجتمع ، واقعاً وشروطاً ، هو مضمون العمل الإنساني ، وأن العمل معني بالتعبير عن المجتمع بوصفه المنطق الذي تستمد منه الإنسانية عوامل تحققها ، وذلك بتفاعل الوعي الذاتي مع الوعي الاجتماعي المتعدد ، الذي هو جوهر الإنسان النوعي : الإنساني . " **وآية ذلك أننا في حاجة ، دائماً ، إلى عالم مشترك ، نتقاسم فيه الحياة مع غيرها من الذوات** "(28) الإنسانية ؛ لذلك عندما " **نعمد إلى القضاء على الفوارق بين الذوات فلا بد من أن يجيء هذا الاتصال سطحياً** "(29) ، من دون فاعلية تذكر . والانشراخ القائم ، اليوم ، في الحياة الإنسانية والذي تعمل قوى الرأسمالية على تغذيته ليس إلا نتيجة للقفز فوق حقيقة الإنسان الاجتماعية ، وحقيقة الوجود الإنساني وتواصله الحميم مع الآخر ، مما انعكس في أدبيات بعض النماذج التي تدّعي الحداثة ؛ إذ ظهرت نزعة فردية مرضية منعزلة عن واقعها الحياتي وأصلها الاجتماعي . فأخفقت في خلق حياة خاصة بها .

ولكي يكون العمل الإنساني فاعلاً ومسؤولاً يشترط فيه امتلاك الحرية ؛ الاستقلال الذاتي ؛ إذ من غير الممكن أن يكون أي عمل إنسانياً ، وفي الوقت ذاته يكون مقيداً بالضرورات الخارجية ؛ لأن " **ضرورة التطور تفرض الحاجة القصوى لممارسة كل فرد حريته الطبيعية ، لإخراج ما فيها من عبقرية ذاتية تأخذ سبيلها نحو التحقق الاجتماعي** "(30) . ولما كان العمل الإنساني صورة مطوّرة عن الحركة ، وكانت الحركة تحتاج إلى حيز من الحرية لتتحقق ، فإن العمل الإنساني يحتاج إلى مزيد من الحرية ؛ إلى فضاء من الحرية ، يتحرك فيه حتى يتاح له أن ينمي قدرات الإنسان ويطور سماته الإنسانية ، كما أن الإنسان نفسه يحتاج إلى الحرية حتى يمتلك القدرة على تطوير العمل الذي يقوم به . فمن غير الممكن أن يكون الإنسان فعالاً مسؤولاً ما لم يمتلك الإرادة والحرية . فبهذه الإرادة يرتقي بعمله إلى إتقان

---

(26) محمد عبد القادر سالم . *العالم كعمل ... الحرية* . ص102 .
(27) زكريا إبراهيم . *مشكلة الحياة* . ص60 .
(28) المرجع السابق نفسه ، ص123 .
(29) زكريا إبراهيم . *مشكلة الإنسان* . (القاهرة : مكتبة مصر ، ط1 – 1959 م) ص41 .
(30) محمد عبد القادر سالم . *العالم كعمل ... الحرية* . ص120 .

خاص ، يمكن أن يسمى بصورة مبدئية الإبداع ، والإبداع حاجة إنسانية ، وخصيصة تنأى بالإنسان عن معارج الوهم والأحلام الواهية ؛ لتحقق سيادة الذات الإنسانية ، وتقربها من لحظة الاكتمال بالنشاط الفاعل والمنفعل . هنا تغدو الحرية فاعلية ثورية مستقلة ؛ فاعلية تميز الإنسان الحداثي من الإنسان التقليدي الخاضع للضرورات ، كما تميزه من الإنسان الحداثوي ؛ فالإنسان الحداثي ؛ الإنسان الحر " **يعي قيمة ذاته بقدر ما يعي قيمة مشاركته في حياة الجماعة ، وبقدر ما يعي مسؤوليته إزاء تلك الجماعة** "(31) التي ينتمي إليها ؛ أي إن الإنسان يحقق إنسانيته بقدر تواصله الاجتماعي ، إذ يغني تجاربه ويثري معارفه وخبرته ، مما يعني أن فاعلية الإنسان وحريته تقتضيان التنوع والتعدد والاختلاف .

بيد أن الإنسان كلما حقق قدراً من الاستقلال الذاتي ، أو الحرية ، يتعرض لضرورات خارجية جديدة ، لم يعرفها من قبل ، فهو يقترب من الاكتمال ، بما يكتسب من ثقافة روحية وخبرات اجتماعية ، لكنه يظل بحاجة إلى قدر أكبر من الحرية ، لعله يبلغ الاكتمال المنشود ؛ لذلك كله يسعى الإنسان ، دائماً ، إلى خلق شروط حياتية تبدو أكثر إنسانية مما هو قائم ، ولا يتحقق ذلك إلا بالتربية الجمالية ، وما قد ينجم عنها من تصورات خيالية ؛ رؤيا ، جوهرها التجاوز والتخطي ؛ تجاوز الثقافة الاستهلاكية وما يترتب عليها من معطيات ومواقف ، وتخطي الضرورات الخارجية واستثمارها ، لإرساء قواعد جمالية للعلاقات الإنسانية : بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والوجود ؛ أي الطبيعة والمجتمع والذات والعمل ؛ ذلك أن التربية الجمالية فعالية إنسانية تجاه الوجود ، وثقافة متكاملة لا تحتمل التجزئة ، فأي نشاط يرتبط بالإنسان لا يُعد إنسانياً ما لم يكن منسجماً مع التربية الجمالية ؛ إذ لا يجوز أن يقيّم هذا النشاط بما يترتب عليه من نتائج نفعية ، فحسب ، بل بما يترتب عليه من نتائج جمالية ، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يقيّم نشاطاً ما تقويماً سليماً ما لم يكن قادراً على استيعاب خصائصه الجمالية وأبعاده الإنسانية، " **ولذلك صارت ثقافة الشاعر [الحداثي] من حيث اتساعها وعمقها في الحضارة الإنسانية ضرورة للفن أكثر من أي وقت مضى . ولعل هذا ما يفسر صعوبة الشعر الحديث وغموضه** "(32) .

انطلاقاً مما تقدم ، يتضح أن التربية الجمالية تنطوي على مواقف تستهدف التغيير في القناعات الآنية السائدة ، وإزالة بعض الأفكار المستمدة من الموروث المعرفي التقليدي وإحلال أفكار جديدة مستمدة من ثقافة التربية الجمالية ؛ لذا فإن مسألة اعتماد أساليب منهجية لتعليم ثقافة التربية الجمالية يُعد مطلباً ضرورياً ، ولعل الخطوة الأولى لذلك هي تحديد أسباب الثقافة الاستهلاكية ، والكشف عن ملامحها في الواقع الحياتي ، وما قد يترتب عليها من نتائج إنسانية ، أما الخطوة الثانية فهي تحديد الثقافة المناهضة للثقافة الاستهلاكية ، ومن ثم العمل على تثقيف الإنسان ، على مستوى الفرد والمجتمع ، بهذه الثقافة ، وذلك بتضمين المناهج الدراسية المبادئ الأساس لثقافة التربية الجمالية : التسامح – السلام – الحب – التواصل الاجتماعي ... ، يضاف إلى ذلك الندوات التثقيفية الخاصة، ووسائل الإعلام ، ... ، والعمل الفني ؛ لتنشئة أجيال تحترم كرامة الإنسان ، وتقدر حريته وإنسانيته ، وتنظر إلى الوجود ، بكل ما فيه ، نظرة كلية ؛ نظرة جمالية تشمل مختلف النشاطات والأجزاء الدينامية في الحياة ، وتقترح علاقات جمالية منزهة عن النفعية المباشرة ، والأحادية المجتزأة .

وهكذا تسهم التربية الجمالية في تكوين المبادئ الفكرية والوجدانية ، الموضوعية والذاتية ، لعلاقة الإنسان بكل ما يمتلك قيمة جمالية ، كما أنها تسهم في مواجهة الثقافة غير الإنسانية ؛ لأن تصاعد الصراعات والنزاعات ليس إلا

---

(31) عبد الله العروي . *مفهوم الحرية* . (بيروت : دار التنوير ، ط2 – 1983 م) ص31 .

(32) يوسف الخال . *الحداثة في الشعر* . (بيروت : دار الطليعة ، ط1 – 1978 م) ص12 .

نتيجة لهذه الثقافة والمبالغة في النظرة المادية للعالم والوجود ، والعلاقات الاقتصادية القائمة على الفردية وتحقيق الأرباح على حساب الجوانب الروحية ، واحترام خصوصيات الإنسان والمجتمع . كل هذا أسهم في توسيع التطور المشوه للإنسان والأشياء ؛ لذا فإننا ، اليوم ، بحاجة إلى التربية الجمالية لمناهضة الاستلاب بأشكاله وبواعثه، وبحاجة إلى وعي جمالي عام ، وقيم جمالية أصيلة ، تنسجم مع حاجاتنا الإنسانية وحاجات الواقع المتجدد؛ لنحيا حياة حرة كريمة ، ونؤسس أعمالاً إبداعية لها ملامحها الخاصة ؛ ملامحها الإنسانية .

المراجع:

1-إبراهيم ، زكريا . *مشكلة الإنسان* . القاهرة : مكتبة مصر ، ط$_1$ – 1959 م .

2-إبراهيم ، زكريا . *مشكلة الحياة* . الفجالة : دار مصر ، د. ط ، د. ت .

3-أدونيس . *زمن الشعر* . بيروت : دار العودة ، ط$_2$ – 1978 م .

4-تليمة ، عبد المنعم . *مقدمة في نظرية الأدب* . بيروت : دار العودة ، ط$_2$ – 1979 م .

5-الخال ، يوسف . *الحداثة في الشعر* . بيروت ، دار الطليعة ، ط$_1$ – 1978 م .

6-سالم ، محمد عبد القادر ، *العالم كعمل ...الحرية* ، مؤسسة العلاقات الاقتصادية والقانونية ، د. ط ، د. ت.

7-صليبا ، جميل . *المعجم الفلسفي* . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ط$_1$ – 1971 م .

8-العروي ، عبد الله . *مفهوم الحرية* . بيروت : دار التنوير ، ط$_2$ – 1979 م .

9-فيشر ، إرنست . *ضرورة الفن* . تر : ميشال سليمان ، بيروت : دار الحقيقة ، د. ط – د. ت

10-فيشر ، إرنست . *الاشتراكية والفن* . تر : أسعد حليم ، بيروت : دار القلم ، ط$_2$ – 1968 م .

11-لالو ، شارل . *الفن والحياة الاجتماعية* . تر : د. عادل العوا ، بيروت : دار الأنوار ، ط$_1$ – 1966 م .

12-مجموعة من المؤلفين السوفييت ، *الوعي والإبداع* ، تر : رضا ضاهر : مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، ط$_1$ – 1985 م .

13-هاوز ، أرنولد . *الفن والمجتمع عبر التاريخ* . تر : د. فؤاد زكريا ، بيروت : المؤسسة العربية ، ط$_2$ – 1981 ، ج$_1$.